

## المحاضرة الأولى: من الهرمنيوطيقا الى التأويل

### تقديم:

لقد بدأ الاهتمام بموضوع الدلالة مع بداية الفكر الإنساني و حظي هذا الموضوع بالعناية عند الفلاسفة و اللغويين على مرّ العصور و في كل الثقافات و كان التركيز حول علاقة اللفظ و المعنى و الوعي بعمق إشكالية الدلالة و علاقتها بأنظمة الرسم اللفظي و البحث في نظم اشتغالها في الذهن ، و هل الدلالة مسيرة بقواعد النحو أم هي معرفة قبلية عقلية على مستوى الذهن . وسنحاول من خلال هذا البحث دراسة حركية الدلالة ، و ذلك بتبيان كيفية اشتغالها كنظام علامي تقننه القواعد اللغوية و النحوية خاصة ، و نجيب عن السؤال هل الدلالة هي جانب الحقيقة في التفكير الانساني ؟ و بهذا تكون اللغة هي الوعاء الذي يربط الفكر بالواقع و تحيل عليه مباشرة ، أم انها تدل على الواقع من خلال وسيط لساني تصويري هو نتاج العلاقة بين الدال و المدلول ، و التي تربطهما علاقة اعتباطية ، لذلك فإن المدلولات لا تعبّر عن معطيات أو علاقات واقعية و لكن تصورات و مفاهيم للأشياء.

و بهذا نصل الى إظهار سيرورة الدلالة و تفكيك نظام و ميكانيزمات اشتغالها بين الدلالة الحقيقية و كيفية انتقالها الى الدلالة المجازية ، و بالتالي خرق القواعد اللغوية و التنظيم النحوي وفتح المجال أمام سيرورة من الدلالات تعيد توزيع الأنساق في لعبة من الإحالات و الترابطات غير متناهية التي تحملنا الى مجال التأويل، وهو رهان مفتوح يسلم بتعدد الدلالات فلا وجود لحدود أو قواعد يستند إليها التأويل سوى رغبات المؤول الذي ينظر الى النص على أنه نسيج من العلامات اللامنتهية ، و يقوم التأويل على زمن دائري و هذا ينتج عنه أن الخطر الوحيد الذي يتهده هو أن نؤمن بوجود علامات تتمتع بوجود أصلي أولي حقيقي .

### - من الهرمنيوطيقا إلى التأويل:

لقد احتلّ مفهوم التأويل مساحة هامة في الأبحاث الفلسفية والأدبية النقدية الحديثة ، فهو المحرك المحوري لها. وقد ارتبط التأويل في الثقافة الغربية بالهرمنيوطيقا\* التي تعني في علم اللاهوت : فن تأويل الكتابات المقدسة تأويلاً صحيحاً.

\* الهرمنيوطيقا (herméneutique) مشتقة من كلمة هرemis (hermés) الذي يمثل في الميثولوجيا اليونانية الوسيط بين الآلهة والبشر. يراجع : عمارة ناصر ، كتاب اللغة والتأويل - مقاربات في الهرمنيوطيقا الغربية ، منشورات الاختلاف ، دار الفارابي ، الطبعة الأولى ، الجزائر 2007.

فالهرمنيوطيقا هي فن التأويل ، وقد كان التأويل في الأصل مقتصرأ على تفسير وترجمة الكتاب المقدس (مشروع قديم أنشأه آباء الكنيسة). ويسعى التأويل إلى الرجوع إلى المصادر الأصلية قصد الحصول على فهم جديد للمعنى الذي ظل محل تحريف كما هي الحال بالنسبة لكتاب الإنجيل.

وتبدأ معضلة الهرمنيوطيقا من داخل النص الإنجيلي على الخصوص<sup>(1)</sup>، وبقضية استحالة قراءته من دون الإقرار بأن عملية التفسير جارية حتى داخل وأثناء كتابة النصوص الدينية.

هكذا تعمل الهرمنيوطيقا على تطبيق أساسي هو الفهم والتأويل ، فهي توظف أدوات منهجية ولغوية من خلال التفسير والتأويل لفكّ شفرات النصوص ، وكشف مكنوناتها وخبائها العميقة. وهي طريقة تهدف إلى العودة للمعنى الأول الذي انحرف عن مساره ، فشهد تحوّلاً وتغيّراً استغرق عدة قرون ، دعمته خلالها صراعات دينية وإيديولوجية وسياسية مختلفة.

ونستطيع القول إذن ، إنّ « للهرمنيوطيقا مهمة علاجية ، فهي تحفر في عمق طبقات النص المتراسة بهدف إدراك المعنى الأول الذي صيغ في البداية وأجيز.. فقد بينّ القديس (أوغسطينس) كيف يعلو العقل في العقيدة المسيحية ، على المعنى الحرفي والأخلاقي ليصل إلى المعنى الروحي..»<sup>(2)</sup>.

بهذا تمثل الهرمنيوطيقا نشاطاً ذا فعالية لجهد الذات في الوصول إلى الحقيقة وتخليصها من الوهم الذي تفرضه شروط الكتابة ، وغموض الرموز في الخطاب ، وبالتالي ترتبط الهرمنيوطيقا - كفن للتأويل - بالفهم كموضوع ينوب عن العالم الذي تحمله دلالاته ورموزه ، وعلى فعل التأويل تفكيك هذه اللغة من أجل الوصول إلى فهم هذا العالم الذي يحمله النص.

ولقد كانت لأبحاث الفيلسوف " هانس غادامير " أهمية كبيرة ، وقد اتخذ الاهتمام بالتأويل حيزاً واسعاً ضمن مشروعه الفلسفي<sup>(3)</sup>. وكما يرى هذا الأخير، فنشاط التأويل يتجلى في التفاهم والحوار كعلاقة جدلية وفعالة بين النحن والتراث وبين "الأنا والآخر" وتقوم على السؤال والجواب والاستقصاء ، لا الإقصاء والحوار لا التحوير : بحيث من الحوار نحاول الاقتراب من عتمة اللغة. وأن لا يسقط التأويل في قبضة اللغة « أي لا يختزل اللغة إلى مجرد لعبة العبارات وسحرية المنطوقات . واللغة تكتمل معقوليتها وتتكشف قوتها وطاقتها وتتجلى حكمتها في بلاغة الحوار »<sup>(4)</sup>.

---

وأورد ابن منظور في لسان العرب عدة معان يتسع لها مصطلح التأويل ، فهو يأتي بمعنى التدبير والتقدير والتفسير.

<sup>1</sup> - ديفيد جاسير ، مقدمة في الهرمنيوطيقا ، ترجمة وجيه قانصو ، منشورات الاختلاف ، الدار العربية للعلوم ، الطبعة الأولى 2007 ، ص 16.

<sup>2</sup> - محمد شوقي زين ، عالمية هرمنيوطيقا جادامير، تر: كاميليا صبحي، مجلة فصول، الهيئة المصرية للكتاب، العدد 59، مصر، ربيع 2002، ص 154.

<sup>3</sup> - عمر مهيبيل، هانز جورج غادامير، خطاب التأويل، خطاب الحقيقة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء العربي، ع: 112 - 113، بيروت 2000، ص 40.

<sup>4</sup> - هانس غيورغ، غادامير، فلسفة التأويل، تر: محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف، الجزائر 2006، ص 25.

إنّ "غادامير" لا يركز على الوجود اللغوي ، وإنما يعطي أهمية بالغة للوجود التاريخي ، دون أن يسقط في التاريخانية السانجة ، لأن التأويل الذي نمارسه إزاء التراث يرتبط دوماً بالسؤال الذي نطرحه ، وبإمكانية النص المقروء أن يقدم إجابة عنه.

وقد انتقد هذا الأخير الطرح الذي وضعه "شليرماخير" في ربطه الخبرة الهرمنيوطيقية في التأويل النحوي والتأويل النفسي. ويرى غادامير أن اكتشاف الحقيقة في العلوم الإنسانية يأتي من خلال إصغاء يقظ للتراث الذي لا يمثل بأي حال عائناً معرفياً في سبيل الفهم الذاتي للعلوم الإنسانية ، بقدر ما هو ضروري ولحظة حاسمة كاشفة لحقيقة لا تنفصل عن الموضوع.

انطلاقاً من هذا نصل إلى تحديد مهمة الهرمنيوطيقا في البحث داخل النصوص نفسها عن الديناميكية الداخلية الكامنة وراء النص ، وعن قدرة هذا الأخير « على أن يقذف نفسه خارج ذاته ، ويولد عالماً يكون فيع فعلاً ، هو شيء النص اللامحدود »<sup>(5)</sup>.

من هنا يصبح الفهم هو المفتاح الهرمنيوطيقي الذي يفتح ويكشف عن رهانات المعنى بكل أبعاده.

---

<sup>5</sup> - بول ريكور ، من النص إلى التأويل، أبحاث في التأويل. تر: محمد برادة ، حسان بورقيبة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، الهرم ، القاهرة ، الطبعة الأولى 2001، ص 25.

